موسيقى

في عام 1975، اشتعلت الحرب الأهلية في لبنان، وتركت في نفس أحمد قعبور آثاراً عميقة. وفي أجواء القصف وانقطاع الكهرباء وصوت رصاص الاشتباكات، أخرج قعبور قصيدة توفيق زياد «أناديكم»، ولحّنها، وكان لحنه الأوّل الذي سبقه، ليُصبح نشيداً عربياً ممتدّاً

أغنية «أناديكم» نشيد الجرح الفلسطيني

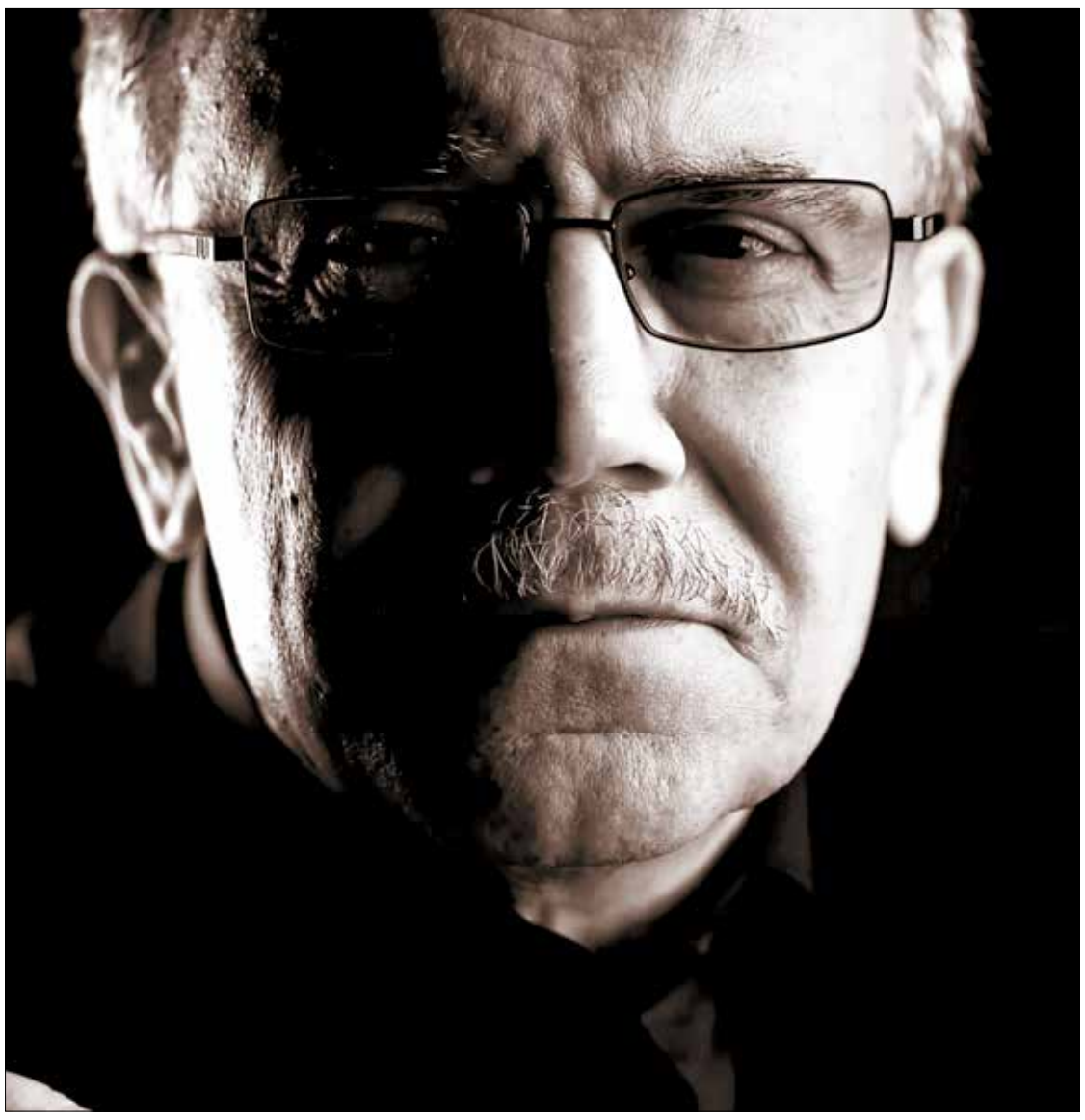

جاء لحن قعبور للأغنية بصورة من الإخلاص الفني (فيسبوك)

هيثم أبوزيد

حين كتب الشاعر الفلسطيني توفيق زياد (1929 - 1994) قصيدته «أشدِ على أياديكم» في عام 1966، ضمن ديوان يحمل العنوان نفسه، لم يخطر في باله ولا في بال المهتمين بشعره أن تحقق تلك القصيدة كل هذا الانتشار الجماهيري. فلنحو عشر سنوات، كان الاهتمام بالديوان قاصراً على النخبة المحدودة من هواة الشعر والأدب، لكن القدر الفني ادخر لقصيدة زيّاد شاباً لبنانياً لم يجاوز العشرين عاماً، ليستخرجها عام 1975، ويجعلها أولى تجاربه التلحينية، ويسجّلها بصحبة كورال لم يمارس الغناء يوماً. لحّن الشاب أحمد قعبور، وغنّى، ثم أطلق أغنيته لتدوي في كل شبر من أرض فلسطين، ولتنتشر كما لم تنتشر أغنية فلسطينية من قبل، ولتصبح عنواناً على المأساة الفلسطينية، والجرح الفلسطيني، والصمود المتواصل لشعب فلسطين.

توفيق زياد

مثّلت قصيدة «أشد على أياديكم» خطوة مهمة في حياة زيّاد الأدبية، فبها أصبح ضلعاً في مثلث مهم أطلق عليه غسان كنفاني وصف «شعراء الرفض»، كانت قصيدته الثالثة زمنياً بعد «سجّل أنا عربي» لمحمود درويش عام 1964، و«لن أساوم» لسميح القاسم عام 1965. كانت حلقة من حلقات النضال المتنوع الذي يحيا به الرجل، ويلهث الباحث في محاولة تتبعه والإحاطة به. كان زيّاد يناضل بالشعر والأدب، بالتظاهر، بالكتابة في الصحف، بالانضمام إلى الحزب الشيوعي، بدخول السجن، ذاق الرجل قسوة سجون طبريا والدامون والجلمة والرملة. بالإقامة الجبرية والسجن المنزلي، وبخوض الانتخابات البلدية، وبرئاسة مدينة الناصرة العريقة، وصولاً إلى عضوية الكنيست في ست دورات متتالية.

كان أحد مقرري يوم الأرض في 30 مارس/آذار عام 1976. كتب: «ادفنوا موتاكم وانهضوا»، فمنعت الرقابة الإسرائيلية نشرها، وكتب «سجناء الحرية» فكانت قوات الاحتلال تعتقل من يُضبط بتوزيعها. وفقاً لغسان كنفاني، فإن الحكومة الإسرائيلية ضغطت على الشركة التي يعمل بها زيّاد لتطرده بسبب شعره ونشاطه السياسي.

لكن كفة هذا النضال الثقيل تطيش حين يقول زياد: «أناديكم.. أشد على أياديكم.. أبوس الأرض تحت نعالكم.. وأقول أفديكم.. وأهديكم ضيا عيني.. ودفء القلب أعطيكم.. فمأساتي التي أحيا.. نصيبي من مآسيكم». يوم 5 يوليو/تموز 1994، خرج توفيق زياد لاستقبال الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات العائد إلى أريحا بعد اتفاقات أوسلو، لكنه تعرض إلى حادث سير مؤلم أودى بحياته. لكن كلماته بقيت: «أنا ما هنت في وطني.. ولا صغرت أكتافي.. وقفت بوجه ظلامي.. يتيما عاريا حافي.. حملت دمي على كفي.. وما نكست أعلامي.. وصنت العشب الأخضر.. فوق قبور أسلافي».

أحمد قعبور

أحب الصبي البيروتي أحمد قعبور الاستماع إلى غناء المطربين الشهيرين، وكان يفخر حينما يرى والده عازف الكمان المعروف محمود الرشيدي وهو يعزف خلف بعض الفنانين الكبار. لكن الأمر لم يكن أكثر من هواية، ولم يفكر قعبور يوماً لا في غناء ولا في تلحين، بل كان اهتمامه الفعلي بالتمثيل والمسرح، لكن حين دخل الصبي في طور الشباب، تفتح وعيه السياسي على الأسئلة التي تثيرها المعاناة الفلسطينية في المخيمات. وعام 1975، اشتعلت الحرب الأهلية في لبنان وتركت في نفسه آثاراً عميقة. وفي أجواء القصف وانقطاع الكهرباء وصوت رصاص الاشتباكات، أخرج قعبور قصيدة توفيق زياد «أناديكم»، ولحّنها، فكانت أولى ممارساته مع التلحين، وغناها فكانت أول اختبار غنائي يخوضه. كانت مجرد تعبير عما يجيش في نفسه من ضرورة تقديم الدعم المعنوي للمقاتلين في مختلف جبهات النضال. لم يكن قد حصّل أي دراسة موسيقية نظرية، ولا أي خبرة عملية. وضع قعبور لحناً يمزج بين الحماسة والأسى، بين القوة والرقة. وتوزع الأداء بينه وبين الكورال، وجاء صوته فنّياً ناضراً. خرجت الأغنية، فدوّت في القدس، والضفة الغربية، وقطاع غزة. في الأراضي المحتلة عام 1948.. في المخيّمات الفلسطينية بالأردن ولبنان وسورية واليمن. وشدا بها الفلسطينيون في الشتات المتسع باتساع العالم.

> خصص قعبور للقضية الفلسطينية جهداً فنياً تلحيناً وغناءً
>
> أعاد الشيخ إمام عيسى تلحين القصيدة وغناها بأسلوب مختلف

أصبحت الأغنية حاضرة في كل مكان، وفي كل نشاط فني حماسي، وصارت الخلفية الموسيقية لعشرات الأفلام التي توثق نضال الشعب الفلسطيني، لا سيما خلال مشاهد الاشتباكات مع قوات الاحتلال. صارت نشيداً عابراً للزمن، لم تزده العقود الخمسة إلا انتشاراً ورسوخاً. تجاوزت شهرتها شهرة كاتبها، رغم مكانته الكبيرة في التاريخ الفلسطيني المعاصر، وتخطت كثيراً شهرة ملحنها الذي غناها بنفسه.

ربط أحمد قعبور نفسه بقضية فلسطين، وخصص لها جانباً كبيراً من جهده الفني تلحيناً وغناء، ومن أهم أعماله لفلسطين: «لاجئ سمُّوني لاجئ»، و«يا نبض الضفة»، و«يا عشاق الأرض هلموا»، التي كتبها بنفسه، وتقول كلماتها: «أسمع جراحكم تنادي من بعيد.. وأراها تتسع لآلاف الفقراء.. وتكتب أياديكم على جدران مدينتنا.. كلمات تزين جدران مدينتنا.. فتعانق الأغاني الرياح.. لتقول إنكم بانتظار الصباح.. يا عشاق الأرض هلموا.. سيجوا أغانينا.. واسمعوا أمانينا». ينتمي أحمد قعبور إلى ما يعرف بالفن الملتزم، يغني لقضايا الإنسان، وللفقراء، ولضحايا الحروب والعدوان.. يغني للاجئين والمشردين.

تتميز كلمات أغنيات قعبور بجدة واختلاف عن أنماط الأناشيد الثورية السائدة، ومن أمثلة هذا النمط المختلف أغنيته «ولهذا أستقبل» التي يقول فيها: «عندما ينطفئ التصفيق في القاعة.. والظل يميل نحو صدري.. يسقط المكياج عن وجهي الجليل.. ولهذا أستقبل.. أجد الليلة نفسي عارياً كالمذبحة.. كان تمثيلي غريباً عن عصافير الجليل.. وذراعي مروحة.. ولهذا أستقبل». يظن كل من يستمع إلى غناء قعبور أنه فلسطيني، وحين جمعه لقاء بمحمود درويش، سأله الأخير: «من أي مدن فلسطين أنت؟»، وكانت المفاجأة كبيرة حين أخبره قعبور أنه لبناني من بيروت.

في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، أعاد الشيخ إمام عيسى تلحين القصيدة، وغناها بأسلوب مختلف، وتذكر بعض المصادر أن تلحين الشيخ للقصيدة جاء بعد لقاء الشاعر توفيق زياد في مدينة ليل الفرنسية عام 1984. كانت الجماهير تنفعل بأداء الشيخ وهو يغني القصيدة بطريقته التمثيلية الخطابية المعتادة. كما أن الشيخ صوّب أخطاء عروضية ولغوية وقع فيها قعبور عند تسجيله الأول، ومنها مثلاً: «وأبوس الأرض» فالواو التي أضافها قعبور قبل «أبوس» تكسر الوزن الشعري، وهو ما صوّبه إمام في غنائه، كما صوّب أداء عبارة «ضيا عيني» التي جاءت في غناء قعبور بفتح الضاد، والصواب كسرها.

لكن أثر لحن الشيخ إمام وانتشاره لم يرق بأيّ شكل لمنافسة لحن قعبور ولا غنائه ولا تأثيره ولا استمرار هذا الأثر إلى اليوم. في لحن الشيخ، يظهر أثر الصنعة، وفي غنائه تتجلى خبرة المحترفين، وتلك عناصر قوة تبدو في النظر السريع حيثيات منطقية لتفوق لحن إمام. لكن عند إطالة التأمل، سيكتشف المستمع أن افتقاد قعبور هذه الخبرات لحظة تلحينه القصيدة، كان سر قوته، إذ خرج لحنه في صورة من «الإخلاص الفني»، الذي يتقدم فيه اللحن على الملحن، والغناء على المغني. استمع ملايين العرب إلى أغنية «أناديكم» وعرفوها جيداً، بل وربما حفظوها بإتقان، لكن نسبة ضئيلة جداً من هؤلاء المستمعين كانت تعرف من ملحن الأغنية ومغنيها.

ولعل أحمد قعبور كان دقيقاً حين عبر عن تفوق شهرة الأغنية على شهرته بقوله: «لحنتها وغنيّتها.. وسبقتني». والحقيقة، أنها سبقته وسبقت كل الغناء الثوري، ولم يجارها في سرعتها وتحليقها إلا أرواح المستمعين الذين تنساب دموعهم وهم يستمعون إلى قعبور يشدو: «فمأساتي التي أحيا.. نصيبي من مآسيكم».

تايلور سويفت... كما لو أنّها سيرة كل فتاة أميركية

علي موره لي

في نوفمبر/تشرين الثاني المقبل، سيبدأ الاقتراع من أجل انتخاب رئيس جديد للولايات المتحدة الأميركية. على الرغم من أن المناظرة الأولى، التي جرت الأسبوع الماضي بين المتنافسين، الرئيس الحالي جو بايدن والسابق دونالد ترامب، أثارت الجدل حول أهليّة كليهما لإدارة البلاد، فإن كلاً من الحزبين الديمقراطي والجمهوري، ما زال إلى الآن متمسّكاً بمرشّحه لمعركة انتخابية حامية، لنتائجها تداعيات تاريخية، تتعدى «العالم الجديد» إلى العالم كله.

في غمرة الترقب والقلق على مصير الولايات المتحدة، ومعها مصير النظام الدولي، إذ لا تزال القوة الأكبر نفوذاً فيه وتأثيراً من الناحية العسكرية والاقتصادية والمعرفية، تتجه أنظار بعض المراقبين إلى نجمة البوب الأميركية تايلور سويفت. في مقالة نشرت في فبراير/شباط الماضي، للباحثة في شؤون الاتصال، والسياسة والمجتمع، عميدة جامعة هيرتي في برلين، آندريا روملِه، تحدثت فيها عن أن أكثر من نسبة 50% من الأميركيين اليوم، يعتبرون أنفسهم من المعجبين بسويفت، وأن نسبة 18% منهم ستصوّت لمصلحة أيّ من المرشحين، في حال أبدت الفنانة دعمها وتأييدها له.

ليست سويفت الأيقونة الجماهيرية الأولى في تاريخ صناعة الترفيه الأميركية التي تمتلك القدرة على التأثير في الحياة والثقافة، فضلاً عن السياسة. لقد سبق للمغني فرانك سيناترا، منتصف القرن الماضي، أن آزر حملة المرشح الديمقراطي فرانكلين روزفلت، إلى أن أصبح رئيساً إبان الحرب العالمية الثانية. كما أن الإعلامية الشهيرة أوبرا وينفري، كانت قد أيّدت المرشح الديمقراطي باراك أوباما أول الألفيّة الحالية، ليكون أول رئيس أميركي من أصول أفريقية.

الفارق هو أن قاعدة المعجبين التي تتمتع بها سويفت، ممن يُعرفون بلقب «ذا سويفتيز»، قد بلغت سعة هائلة غير مسبوقة، جعلت من ابنة الـ34 عاماً تتحول إلى ظاهرة تستدعي التأمل والدراسة، إذ بات بالإمكان النظر إليها بوصفها قوة إعلامية ومالية وثقافية خارجة عن المؤسسة،

> تحسن تايلور سويفت إمساك عصا الخطاب الثقافي من المنتصف

من جولتها الفنية الأخيرة، أمستردام - الرابع من يوليو (كارلوس الفاريز / Getty)

تملك أسباب التأثير في مسار الأحداث. بحسب وكالة رويترز، بلغ أعداد الذين ارتادوا عروضها الثلاثة التي قدمتها في العاصمة السويدية استوكهولم، كجزء من جولتها الفنية المعنونة «حقبات» (Eras) في مايو/أيار الماضي 180 ألف شخص، جاء نصفهم من خارج البلاد، ما درّ على اقتصاد المدينة عوائد تقدر بقيمة 81 مليون دولار. أما في موطنها، الولايات المتحدة، وبحسب وكالة نوموراً للتحليل الاقتصادي، فقد زادت عروضها من إنفاق المستهلك الأميركي بقدر خمسة مليارات دولار على مدار أشهر الجولة الفنية الستة. منها مليارا دولار نتاج مبيعات التجزئة من قمصان وتذكارات تحمل اسم النجمة أو صورتها.

قد تعود سعة القاعدة الجماهيرية التي تحظى بها تايلور سويفت في جزء منها إلى تطور تكنولوجيا الاتصالات وبروز دور وسائل التواصل الاجتماعي كوسيط ترويج فنّي معولم، أجادت سويفت استخدامه بفرادة، وذلك عبر تحويل العلاقة التي تربطها مع جمهورها إلى ما يشبه كوناً افتراضياً موازياً، حالماً وفانتازياً، بات يسمّيه النقاد تايلورفيرس (Taylorverse).

يتميز هذا الكون «التايلوري» باتّساق المرويّة التي قدّمَتها الفنانة إلى جمهورها، على الأخص الفتيات. فمسيرتها الفنية، سواء إنتاجها من الأغاني أو تمظهرها في الحياة العامة، واصلت التطور باتّساق ملحوظ مع مراحل نموها البيولوجي والفكري دونما انقطاع أو غياب عن دائرة الضوء. لقد عاصرها معجبوها منذ أن كانت نجمة طفلة ومنذ كانوا أطفالاً صغاراً، ثم مروراً بمرحلة المراهقة، وصولاً إلى عتبة الرشد، وعليه، تماهوا مع سيرتها الذاتية كما لو كانت تجلّياً أسمى لسيرة كلٍّ منهم، كفتاة أميركية عادية، تؤرخ لفصول حياتها بالأغنية، لتؤسطر ضمن فضاء التايلورفيرس.

ولئن تحولت سيرة حياتها العادية إلى قصة نجاح أسطورية وأمثولة في العصامية وتمكين المرأة، فإن صورة الفتاة الأميركية الحالمة والرقيقة بقيت عالقة بابنة ولاية بنسلفانيا المحافظة، وتحوّلت إلى علامة تجارية، لا بل إن صعودها إلى النجومية، بحسب المرويّة التايلورية، تم بدفع نسوية مؤنثة متمثلة بخطاب الافتقار إلى الرجولة، لا بتجاوز الأنوثة والتخلي عنها سعياً وراء نموذج نسويّ مُذكّرن، كما ورد في أغنيتها The Man سابعة ألبومها المعنون Lover من إنتاج سنة 2019، حين غنّت : «سئمت من الركض بسرعة قدر المستطاع، وأنا أتساءل ما إن كنت لأصل أولاً لو كنت رجلاً، إذ إني لو كنت رجلاً، لكنت الرجل».

يلقى مضمون التمكين النسوي تخالفيّ الجنس (Heterosexual) سواء أكان مستبطناً بين سطور كلمات الأغاني أو معبّراً عنه بسرديّة مقاطع الفيديو، ومن خلال المظهر الشخصي في الفضاء العام، صدى متناغماً لدى التيار السائد بين أغلب الأميركيات، من بين الفتيات تحديداً، فسويفت تحسن إمساك عصا الخطاب الثقافي من المنتصف، مبتعدة عن الحواف التي قد تؤدي بشعبيتها إلى الانحسار، فالاقتصار على شريحة مجتمعية دون أخرى، أو الاصطفاف خطابياً وراء هوية سياسية في وجه هوية مقابلة.